

انقضى الآن ثلاثون عاما على وفاة محرر المرأة المصرية قاسم أمين . وقد
لاقت دعوته من النجاح بعد وفاته ، قدر ما لاقت من الاستنكار فى
اثناء حياته . ولكن ما نجم عنها من نتائج يحملنا على أن نتساءل :

هل أخطأ قاسم أمين

فى دعوته الى تحرير المرأة ؟ (*)

بقلم الأستاذ محمد فريد وجدى

قال العلامة الكبير (اجوست كومت) مؤسس علم الاجتماع والفلسفة
الوضعية فى كتابه (النظام السياسى) :

« كل أدوار الانتقالات الاجتماعية قد ولدت كما فى زماننا هذا
ضلالات خيالية على حالة النساء الاجتماعية ، ولكن القانون الطبيعى
الذى يخصص الجنس النسوى للحياة البيتية لم يتغير ابدا تغيرا خطرا »

وهذه الضلالات فى نظر واضح علم الاجتماع هى ما كان يكتبه بعض
الكتاب فى أوروبا تحت عنوان : (تحرير المرأة) .

التسمية فى نفسها تؤثر فى كل نفس كريمة ، فمن الذى لا يود أن
تحرر اخواته فى الانسانية من الأسر وقد حررت الاماء السود فى جميع
بقاع الأرض ، ويغفل الأكثرون عن أن هذه التسمية مبنية على اخطاء
علمية ، سوغت لعمدة الفلسفة الوضعية أن يسميها ضلالات خيالية . فلم
تنص شريعة فى الأرض مهما انحطت على أن النساء أسيرات فى أيدي
الرجال ، ولا أنهن مجردات من جميع الحقوق ، ولكن الأمر الواقع هو
أن المرأة فى الجماعات المختلفة كانت تعامل على نسبة مكان تلك
الجماعات من سلم المدنية ، ولا سبيل الى تغيير هذه المعاملة ، فان فلسفة
محررى المرأة لا تصل الى هذه الجماعات ، ولو وصلت لرموا بها عرض

(*) مجلة الهلال ، يولية ١٩٣٨ .

الحائط ، فان لكل دور من أدوار الاجتماع مميزات لايمكن أن تتخلف على الاطلاق .

والذى يتبين من تاريخ الانسان أنه ما فتىء يزيد من حقوق المرأة عليه كلما ارتقت حالته الأدبية وازداد شعورا بواجباته الاجتماعية ، فنزل عن كثير من مزاعمه حيالها دون أن تطالبه هى بذلك ، محفوزا بمحض العوامل الطبيعية ، مما يشعر بأن العلاقة بين الجنسين لابد منتهية الى درجة من الكمال لا يكون معها محل لشكوى . نعم لم تصل أمة من أمم المعمور بعد الى هذه الدرجة ولكنها منتهية إليها لا محالة ، اذا خلا الجو من المزاعم الطائشة التى يرمى مثيروها من ورائها الى الحصول على ما يطلبونه باسم المرأة من طريق الثورة لا من طريق العوامل الطبيعية .

ولقد اتفق فى ابان نعمة تحرير المرأة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر أن نعرات أخرى فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والخلقية والسياسية كانت قائمة ، أثارتها مزاعم اشتراكية وفوضوية واباحية واصلاحية ، فكان تأثير مجموع هذه النعرات الصاخبة فى ذلك القرن أشد فى زعزعة أركان المبادئ المستقرة فى نفوس الناس من تأثير أكبر الحوادث الانقلابية ، وأفضى ذلك التأثير الى نتيجة لا مفر منها فى مستهل القرن العشرين ، وهى الحرب العامة التى ظلت الانسانية تتناحر فيها خمس سنين متوالية وكادت تقضى على المدنية وتجعلها أثرا بعد عين ، لولا ما كتب لها من بقية حياة الى حين . فكان أثر نعمة من هذه النعرات المتطرفة أن ارتكست الأحوال بسببها الى عكس ما كان يراد منها . فاستحالت فى الناحية الاقتصادية الى انتشار البطالة ، وتوالى الأزمات ، وتتابع الاضرابات ، واختلال ائزان الاعمال فى جميع البلدان . وكان أثرها فى الناحية الاجتماعية زعزعة الأصول الديمقراطية ، وقيام حكم الفرد مقام حكم الجماعة ، وضياع أكثر المبادئ العليا التى حصلها الانسان فى خلال العصور باراقة دمه ، وأصبحت الجماعات مضطرة الى اللجأ لحكم القوة ، ففرغت الى التسلح باذلة فى سبيله كل ما تملك من حول وحيلة .

وكانت ثمرتها من الناحية السياسية سريان سوء الظن بين جمع

الأمم ، وتنبيه الأحقاد الجنسية وهضم حقوق الأقليات لدرجة حرمانهم من العمل لكسب قوتهم ، حملا لهم على الجلاء من بلاد استوطنوها مئات من السنين ، وعدم المبالاة بالعقود المبرمة ، والعهود المقطوعة ، حتى صرحوا بأنها وقصاصات الأوراق سواء . وابتنى على ذلك كله الجرى على قاعدة الأمر الواقع ، فأصبحت كل أمة قسوية تبنت لنجارتها ما بدا لها من الحوادث، حتى إذا أصبح الناس وجدوا أنفسهم حيال انقلاب كان لا يمكن حدوثه لو كانت النفسية السياسية للقادة فى حالتها التقليدية .

أما من ناحية الآداب العامة فقد كان من نتائجها أن تفككت جميع ريبط الاخلاق ، وانحلت عرى حوافظها المعنوية ، فلم يبق لسننها التقليدية اعتبار فى نظر الخاصة والعامة ، فسمح كل فريق لنفسه أن يعمل ما يبدو له كأنه مستقل برأسه ، وضعف سلطان الرأى العام فلم يعد أحد يعتد به متى تراعت له مصلحة شخصية فى احتقاره .

هذه الكارثة الخلقية حلت بالبيوت فلم يبق لرب الأسرة المنزلة التى كانت له من قبل ، وأنس نفسه بين حليلته وبنيه مجردا من السلطان ، حتى فيما يمس شرفه الشخصى وكرامة البيت . ورأى أنه لو قام مذكرا بأدب موروث ، أو بقاعدة مأثورة ، أو بمأساة منووعة ، قوبل بعاصفة من الاحتجاج ، وضربت له الأمثال بفلانة وفلان ، واحيط به من كل مكان ، فالقى نفسه بين شرين لا وسط لهما ، فاما أن يعتزل أسرته ويعيش أبدا كأنه بعض الضواري ، واما أن يجدد انف غيرته فيتغابى ليعيش ، متأسيا بمصائب الكافة بين يديه ومن خلفه .

ألت هذه الاباحة الجائحة بصناعة القلم ، فاندس فيها من لا حريجة له من كرامة أو ضمير ، فأطلق ليراعته العنان ليرضى هذه النفوس الهائمة فى متاهات الشهوات، ويبل أوام تلك الفطر النزاعة الى الاباحة والاطلاق . وأى شئ يخشى وقد سلب الرأى العام سلطانه فلا يبالى وازعا من ناحيته، ووسم داعى الاعتدال بالرجعية فلا يتوقع كريمة من جهته ، واضطر كثير من حملة اليراع الى الاسفاف ، وما هم بأهله ، ولكن المضطر قد يركب الصعب من الأمور وهو عالم بركوبه !

فاذا عنى باحث بأن يستطلع آراء زعماء المذاهب المختلفة فيما انتهت اليه الحال فى هذا العهد كثمرة لجهادهم ، لما صادق واحدا منهم راضيا بما آلت اليه الامور ، بل لصرحوا له بأن نتيجة جهودهم جاءت مباينة لما كانوا يدعون اليه . فلا الاقصاديون كانوا يرومون من وراء بحوثهم المستفيضة أن تنتهى الحال الى ازيمات عملية ومالية منكرة ، ولا الى اختلال توازن المبادلات والمعاوضات الى حد أن أصبحت كل أمة تعمل على ان تقطع صلاتها بجميع العالم ، وتكفى نفسها الحاجة الى سواها فيما جل أو حقر ، ما ستكون نتيجته لا محالة قطع أوامر الأمم ، وفصم عرى الالفه العالمية التى لا موجب لوجودها الا ضرورة تبادل المنافع ، وتداول المرافق .

ولا الاجتماعيون كانوا يرجون باكثرهم من بيان علل الجماعات ، والسعى لزيادة حظها من الحرية ، ونقد اسراف الحكومات فى تجاهل حقوق الافراد ، أن ينتهوا الى هدم سيادة الأمة ، واحلال الدكتاتورية محلها ، ولا الى اثاره الدهماء الى حد اقامة حكومات شعبية تنعدم فيها الطبقات وتستحيل الى شيوعية باحتة . ولا شيعة الشيوعية أنفسهم كانوا يتطلبون من وراء سيادة مبادئ كارل ماركس أن تفضى الحالة الى ضرب من الحكومة الاستبدادية لا يستطيع القائم بها أن يحفظ وجودها الا باحداث مجازر بشرية دورية .

ولا اشياخ الاصلاحات الخلقية كانوا ينوخون من تشنيعهم على استبداد الأوضاع العامة ، والتشهير بالعبودية لوثنية العادات والتقاليد الضارة ، أن تؤول الحال بالناس الى نكران جميع الأوضاع والعادات ، والخروج الى باحة الفوضى الخلقية ، كما هو حاصل اليوم .

ولا زعماء النقد الأدبى كانوا يرجون بما نعوا عليه من تحدى الأساليب العتيقة ، والورع المبالغ فيه عن ذكر المساوىء البشرية فى عبارات صريحة ، أن تنتشر الدعارة الكتابية الى حد أن توقف البراعات الفنية على نشر ما يثير الشهوات البهيمية ، ويقضى على عاطفة الصلاح فى النفس البشرية .

ولا الذين كانوا يدعون لتحرير المرأة والمطالبة باستقلالها كانوا يرمون أن يقضوا عليها بأن تعيش على هامش الجماعة كما هي اليوم ، خارج دائرة الزوجية ، وأن تقصر على أن تكون أداة شهوانية ، فإذا لم تعد تصلح لذلك نبذت الى عالم الحرمان مع أولادها الطبيعيين ، وأن تستتبع هذه الاباحة انتشار العزوبة ، واقفار البيوت ، وذيوع الأمراض السرية ، وقيام نوادى العرى التى يجتمع فيها الرجال والنساء عرايا على حالة تأبأها الكرامة الانسانية .

فلو أراد الباحث المنصف أن يعرف الطائفة التى فازت مما دعت اليه بحظ مرض ، أو اعتبرت ما آلت اليه الأحوال نمشياً نحو تحقيق غرضها ، لما وجدها فى واحدة مما ذكرت وما لم أذكر . بل لراى رأى العين أنها خسرت جميعا خسارات فادحة فى مبادئها وتعاليمها ، وأصبحت لاتستطيع أن تتابع جهودها ، اللهم الا فى ناحية واحدة وهى الدعوة الى التعقل ، وإعادة النظر فيما العالم ماض فيه راكبا رأسه لا يلوى على شيء .



الدعوة الى تحرير المرأة فى مصر كانت فرعاً من تلك الدعوة نفسها فى أوربا ، وقد أصابها هنا ما أصابها هناك ، اى انها تأدت الى شر محض ، واندفعت فى تيار لا يرجى الخير ممن يندفع فيه . ولو كان المرحوم قاسم بك أمين حيا ورأى ما نحن راؤوه اليوم ، لبرىء الى الله منه ، ولاهاب بالناس الى الرعوى عما هم ماضون فيه .

لقد سلخنا فى تحقيق برنامج تحرير المرأة أكثر من ثلاثين سنة فلم يتم منه غير شيء واحد ، وهو سفور القلة المحجبة من ساكنات المدن ، وكانت النتيجة وصولنا الى عكس ما كان ينتظر من ذلك البرنامج . فقد كان ينتظر واضعه منه ارتفاع مستوى الآداب ، ورواج سوق الزواج ، وتوافر أسباب السعادة فى البيوت ، ولكن أذى حدث هو تدهور مروج فى الآداب العامة ، وانتشار مفزع لمبدأ العزوبة . وكنا لا نسمع بحدوث طلاق فى الأسر الكبيرة الا فى أحوال شاذة ، فأصبحنا نراه شائعاً فى تلك الأسر كأنه امر عادى . ووضحت جلسات المحاكم غاصة بقضايا هتك

الأعراض ، وتعدد بعض النساء للزواج • وصار من الأمور المألوفة هروب
الشابات من دور أهليهن ، وقضاء الأيام والأسابيع مع بعض الشبان ،
واختتام هذه الفصول بعقد قرانهن فى مكاتب البوليس ، ولا تسلم عما
تؤول حالتهم اليه بعد تلك المأساة المنكرة من السيرة المعوجة ، والحياة
الذنسنة •

لقد طمت هذه الأحوال وتفاقت شروها وهى آخذة فى الازدياد ،
وقد أصبحت جزءا من التدهور الأدبى العام الذى أصاب الانسانية فى هذا
العهد الأخير • فاذا اعتبرها الاجتماعيون من العلامات المنذرة بقرب
انهيار صرح المدنية الراهنة ، فلم يعد الصواب ، لأنه لا يعقل أن تنقلب
الحياة الانسانية الكريمة ، وهى مستقر الصفات الملكية ، وعوامل السمو
الذى لا حد له ، الى مثل هذا الحضيض من الدنيس والاسفاف والبهيمية •

على باب الرجاء

الدكتور سيد أحمد عثمان

كنا جلوسا نشاهد صورة حية للشيشانى المجاهد المسلم وهو يضع سلاحه ليقيم صلاة الجماعة على مهاد منور بالجليد . متنقلا بهذا من عبادة الى عبادة ، بل متزودا من عبادة الصلاة بزاد من صادق العبودية ، وخالص التقوى ، رفيع الاحسان ؛ فيرتفع درجة فوق درجة فى جهاده الاسلامى الموصول من لدن أجداده القدامى فى جبال القوقاز ضد العدو ذاته المتربص من قديم ، بالاسلام هناك ، وان له فى الحاضر لأشباها فى كل ركن من أركان الدنيا ، ونظائر فى كل مسعى من مساعى الحياة . مال صاحبي الى يحدثنى هامسا كأنما يحدث نفسه ، أو كأنما يحدثنى بحديث هو على يقين من أننى محدث نفسى بمثله ، حدثنى قائلا :

« ألسنت ترى أن حكمة الله سبحانه قضت أن الاسلام لا يزكو ولا يمتد الا من جهتى التحدى والابتلاء . والاسلام منذ يوم بلاغه الأول الى يوم الناس هذا ، يوشك ان يكون ابن التحدى ربيب الابتلاء ؟ ويكاد يستقر قانون من قوانين التاريخ الاسلامى ، أن التحدى ، واشتداد الابتلاء ، يؤذنان ببعث للاسلام جديد ، يمتد فيه اتساعا بين البشر كافة ، ويتأصل فيه عمقا فى ضمير الانسان » .

فقلت : « بلى ... حقا الاسلام ابن التحدى ، ربيب الابتلاء ، وأضيف يا صاحبي ان الاسلام ، قبل هذا وبعده ، رفيع الرجاء . انه دين قلبه رجائى ، قلبه مصاغ من ضياء الرجاء . فلولم يكن الرجاء حيا فى قلب ذلك المجاهد الشيشانى المسلم ، ما كان التحدى ليقويه ، بل يرديه . ولولم يكن الرجاء فى لب ارادته ، ما كان ليشد بالابتلاء ، بل ينهد ، ولو لم يكن الاسلام دينا رجائيا ، ما كان أجداد هذا الشيشانى المسلمون ليحملوا اسلامهم من قلب الصحراء ، من واد غير ذى زرع ، الى هذا الجبل العاتى الذى تقع الشيشان عند أطرافه البعيدة . نعم ، لو لم يكن قلب ذلك العربى المسلم عامرا بالرجاء الحى ، ما كانت لتحمله ارادته ،

وترفعه همته ليبلغ رسالة الاسلام الى ساكن ذلك الجبل الالبي فى شموخه ، العصى فى وعورته ، القصى فى مداه . الرجاء الذى حمل المسلم الأول ، وحمله المسلم الأول الى الشيشان وما جاورها ، انتقل راسخا ثابتا ، بل رابيا متفتحا ، الى المسلم المعاصر هناك ، والا لما وقف هذه الوقفة الجسور ، التى أذهلت الدنيا ، والغرب بخاصة ، من تلك الارادة التى تفوق كل تصور لديهم محدود ، والهمة التى تتجاوز كل تقدير لديهم محسوب . وذهبوا يدرسون ويحللون ، بقدر ما أوتوا من العلم والمنهج والأداة ، ولكنهم لم يصلوا الى صحيح من التفسير ، ولا سديد من الرأى ، وما كانوا منصفين . فهل ندرس نحن ونحل ، ونكون عندئذ من المنصفين ؟ واننى مخاطب عشيرتى الأقربين من النفسانيين العرب المسلمين : أن أولو جانب الرجاء فى قلب الاسلام اهتمامكم ، الرجاء من حيث هو مصدر ارادة ، ومنبع همة ، وموجه طاقة ، ومولد حكمة ، الرجاء من حيث هو ثقة متعددة الأبعاد ، ووعى متفاوت المستويات ، وعمل متباين الدرجات(*) . ألم يئن لنا ، نحن النفسانيين العرب المسلمين ، أن ندخل الرجاء فى دائرة ما ندرس من ظواهر نفسية لها دورها فى حياة المسلم ، غردا كان أم جماعة ؟

وهنا قال صاحبى ، غير هامس هذه المرة : « أراك قد استرسلت ، وذهبت بعيدا فى توقعك واهتمامك ، وأراك انتقلت من الشيشانى المسلم الى النفسانى المسلم » .

قلت : « انه قريب من قريب ، ذلك مجاهد بسلاحه ، ألا نجاهد مثله بعلمنا ؟ ألا نطرق باب الرجاء علميا ، عسى أن يفتح الله علينا بادراك أرشد ، وبصر أعمق ، وفهم أوسع للرجاء ودوره . اننى أطرق بابك أيها النفسانى المسلم داعيا اياك أن تطرق باب الرجاء ، واننى لعلى يقين من أنك سوف تؤوب ، ان شاء الله بزاد من الفهم والعلم تحمد الله عليه ، ويشرك قومك الراجون ، والمترقبون للنافع من العلم يجريه

(*) راجع ، ان شئت ، عن الرجاء ، سيد أحمد عثمان : التعلم عند برهان الاسلام الزرنوجى ، القاهرة : الأنجلو المصرية ١٤٠٩هـ (١٩٨٩م) - صص ١٠ - ٤٦ .

الله سبحانه وتعالى على يدك ، فترجو عنده ثوابه ، وترجو أن ترى
فى واقع الحياة آثاره وثماره » .

« ... ان ربي لطيف لما يشاء انه هو العلیم الحكيم »
(يوسف : ١٠٠) .